تبدل الحياة البيتية

« في الشرق الاقصى [1] »

هاهي ذي رائحة الاصلاح تملأ فضاء الشرقين الادنى والاقصى ، ولكن الحياة فيهما تتغير بالرغم من ذلك تغيراً بطيئاً . ان انتشار الفكرة القائلة بلزوم التغيير انتشاراً واسعاً سيؤدي حتماً الى حدوثه ولكن الى اي حد ينتهي ؟ وفي اية ناحية يسير ؟ يسهر مفكرو الشرق في الاقطار الغربية ويعكفون على مطالعة كتب الغرب ويبحثون في كل مكان رجاء ان يكشفوا أسرار الرقي والعظمة والفلاح .

« الطائر الازرق » عنوان قصيدة لمائرلينك الشاعر البلجيكي الذائع الصيت جاء فيها ان ولدين راحا يبحثان عن (طائر السعادة الازرق) فاخذا يتنقلان في الأمصار ، فلم يبلغا قطراً الا قيل لهما انه طار الى قطر آخر . فاما بدورة حول الارض ، فوجدا نفسيهما أخيراً في موطنهما دون ان يعثرا على الطائر . ولشد ما كانت دهشتهما حين دخلا بيتهما ووجداه يرفرف مغرداً قرب مدفأتهما . كثيراً ما عن لخاطري ان هذه الحكاية صادقة تنطبق كل الانطباق على كل مانصبو الى امتلاكه من الاشياء العظيمة الصالحة التي تنقطع في البحث عنها مسافات شاسعة على حين هي قريبة جداً من ايدينا .

ائتن الشرقيات ننظرن الى الغرب طلباً للرقي والنجاح ، والنجاح التام ليس في تقليد كن الغرب بل في تمسككن بالقديم الصالح . عليكن ان تنظرن الى غرب أبعد — الى اليابان والصين — حتى الى الهند — واذا استأنفتن ارسال الطرف الى غرب أبعد فأبعد وجدتن انفسكن أخيراً هنا ايضاً !

ان اميركا بسبب مابذلته من الجهود الكثيرة في اكتشاف الحقائق العلمية والقواعد الصالحة في التربية والتعليم تدخر لكن مثائل نافعة تقدر ان تفيد كن بها . ولكن في

---

(١) المحاضرة التي القتها الادبية الآنسة فروسين درويك سمث في ردهة المجمع العلمي بطلب من رئيسه وترجمتها الفاضلة الآنسة ماري نجمي صاحبة مجلة العروس للسيدات الحاضرات فقرة اثر فقرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تقليد كن إياها في بعض الامور — في الجود والرفه والإسراف في القوى — خطراً عظيماً عليكن . ان نجاحها نشأ من غزارة مواردها الطبيعية الفياضة فيضاً لا يعتريه نقص ولا وني . وقد أثرت مزايا الاميركيين هذه في نفوس الغرباء عنهم تأثيراً بالغاً على حين ان العالم القديم يعجز عن مجاراة العالم الجديد في التدبير ، او يكون تقليده إياه سائقاً له الى هاوية الهلاك .

مع هذا ان ماذكرت من مزايا اميركا لم يتقرر عقم فائدته بعد تقريراً نهائياً ، لان اميركا جديدة لم تتعد بعد طور التجربة ، ولكن يقال ان مصير أبناء الغني الى الفتور وقعود الهمم . وهذا رأي له معنى خاص في هذه البلاد جرياً على رأي من قال ان أحسن مزايا العرب نتيجة تأثير فقر جزيرة العرب وشح الماء فيها وأشعة الشمس المحرقة وجدب الصحراء الجائر ، فالأمم باخلاقها وليس من ثروة حقيقية لبلاد غير أخلاق سكانها .

لو استطعتن السياحة في انحاء المعمور ، لو استطعتن انفاق الاعوام العديدة في استقراء كل حضارة وجدت واشتهر امرها في العالم ، لكنتُ واثقة من انكن ستنتهين الى ان سبب تقدم تلك الحضارة والناحية التي سلكتها للوصول اليها لم يقفا على وفرة صادراتها وغزارة مواردها وتدفق أنهارها اوسعة طول هذه الانهار وعرضها لم يقفا على مقدار ما في مستودعاتها من الزيت والحديد ، بل على أخلاق تلك الامة ، على وفرة من فيها من رجال ونساء رفعوا لواء العدل والتساهل والشرف عالياً !

لذلك كان شطر النساء من الاشتغال في تقدم حضارة البلاد جليل القدر لان كونهن أمهات قد جعلن رباتِ القول الاول والاخير في تكييف أخلاق ابنائهن . ينفق الرجل معظم أوقاته خارج البيت سائحاً باحثاً عن المبتكرات ، وتنفق المرأة معظم اوقاتها في البيت في تربية أولادها وتشجيعهم على الامور الصالحة وحثهم على التمسك بالقديم ، واني ولئن كنت أتمنى ان تتاح لكنّ السياحة فلا أجد في طوقكن واثنن أمهات انفاق الزمن الطويل عليها ، اذن تكون الأمومة هي العامل في صيانة النظم والعادات القديمة التي ثبت نفعها بالتجربة والتي من شأنها تهذيب الاخلاق ، واذن تكون الابوة هي العامل في التغيير والابتكار . فاذا قدرتن ما في الشرق من الصلاح قدره ، ووفيتنه حقه من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاخلاص والاحتفاظ به ، ادخرتن لبلادكن مستقبلاً عظيماً وخدمتن العالم خدمة جليلة .

اجد فيّ ميلاً للاعتقاد بان في ارسالكن أبنائكن لطلب العلم في الاقطار الغربية شططاً فاحشاً . فان طلبة العلم في الصين يعودون الى بلادهم ليجعلوا أعلاها سافلها ، لقد أحدثوا اضطراباً في جو الحياة واضرموا وقوداً جديداً من شأنه ان يزيد عثار الامة وكبوتها بدلاً من إخماد ثورتها ، ولو جمع الصينيون المال الذي ينفقونه على تعليم اولادهم في الغرب اربع سنوات ، لكان المجموع كافياً ان يستأجروا به أمهر اساتذة العالم ، ولصار التعليم اكثر ملاءمة واتم انطباقاً على حاجة الصينيين وأقوى على حل مشاكلهم . اما والحالة هذه فان الطلبة يعودون من الغرب محاولين اطراح كل قديم ، فمثلهم في ذلك مثل من يضرب الجدار الحجري برأسه وحين يبدو لهم عجزهم عن تغيير الحالة ، يقعون من جرائها في يأس شديد وينقطعون الى التراخي . معرضين عن كل انواع الجهاد . ان في الشرق متانة راسخة لا يتزحزح عنها . ان فيه توازناً شديداً لا يدرك له مدى . استمر عصوراً عدة فليس في الامكان ان يتغير سريعاً . وليس في الامكان ان يقلد امريكا باسرافها وإفراطها .

لقد كمنت في قلب الصيني آية ارسطو الذهبية طويلاً تلك الآية التي سادت ايضاً سائر انحاء العالم القديم وهي عليك بالاعتدال في كل الامور ، فانه اقرب السبل الى بلوغ الكمال — لقد تمكنت في نفس الصيني هذه الآية حتى لا تستطيع قوة ان تشن الغارة عليها . والحق ان ليس ثمة من قوة تقدر ان تحدث تغييراً سريعاً في جوهر الآداب الصينية مهما يكن من الجهد المبذول ، ومهما يكن شأن الوسائل التي يتذرعون بها .

لقد اخذ الشباب الصينيون تهاجمة جوهر آدابهم يضربونه ذات اليمين وذات اليسار ، فأفضت مساعيهم الى عاقبة جديرة بالاعتبار ، لقد كان نقدهم نظام العائلة القديم امراً ما اهالوا من النقد . فشوشوا حالته ، وشددوا عليه النكير ، فاضطرب جو العائلة ، فنجم من جراء ذلك استحالة ترقية روح الاستقلال واحترام النفس اللذين هما من ألزم الصفات لهم يريد ان يعيش تحت لواء الحكم الديموقراطي . فشق الامر على آبائهم الذين رأوا ابناءهم يعيشون كالنبات الذي يمتص غذاء غيره وصعب عليهم اعادة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السكينة الى نصابها ، وبعبارة أخرى ان نظام الأسرة بما فيه من روح الأنفة ، التي هي أضمن للنسل والشرف ، قد تزعزع بعد ان كان هذا النظام في الصين ثابتاً ثباتاً وطيداً عجيباً كنا نرى معه مملكة الصين المؤلفة من ٤٠٠ مليون نسمة عائشة تحت نظام يضارع أحسن النظم مع انها في الواقع خالية من حكومة ، وكان من شأن تلك الحركة التي أثارها الشبان ان فترت العزائم ، وادى ذلك الى الغاء كثير من اعمال البر .

لقد اخطأ القائلون ان عبودية المرأة واعتبار كونها دخيلة على الرجل صدرت من الشرق . ما من خطإ يستطيع ان يحجب الحقيقة او يقدر على نفيها . لقد نشأ هذا الاعتقاد في كل انحاء العالم — اثر طروء احوال مختلفة — فليس هو حقيقة اهتدى اليها الانسان بالفطرة ولا هو حقيقة لانه انتشر بين القبائل التي تعيش على الفطرة . تلك القبائل التي ندعوها همجية بربرية لانها تعامل النساء معاملة الدخيلات . وعلى العكس فان منشأه التخمة التي أصيبت بها بعض الامم من الإفراط في المدنية . على حين نرى رتبة المرأة في الامم العائشة على الفطرة والتي تضطرها الحال الى مقاومة العناصر الطبيعية ، تعادل مكانة الرجل لانها تساويه في القوة وتشتغل بما يشتغل به وحسبنا دليلاً على ذلك ان مكانة نساء القرى وغيرهن من طبقة الزارعين مساوية لمكانة الرجال وهم يعاملونهن معاملتهم لانفسهم الا في الاماكن التي تسرب اليها الاعتقاد بعبودية المرأة بواسطة الاحتكاك باهل الطبقة المتمدنة المترفهة . فإذن ليس من اثر لعبودية المرأة الا في البلاد التي يعتقد اهلوها بان للنساء حقاً في الوجود ، لا باعتبار كونهن مخلوقات بشرية ، بل باعتبار انهن ادوات لذة للرجال وآلات لانتاج الاولاد .

وتأييداً لذلك ألفت انظاركن الى حالة نساء العصر الحاضر في الشرق ، فهن مجردات من حقوقهن السياسية كأخواتهن الغربيات الا منذ قليل . ولكن اعتبار المرأة دخيلة حالة وقتية ستزول وليس حالة حقة ولا ثابتة . وحين نفكر في قضية حرمان المرأة هذا من حقوقها لا يجوز لنا ان ننسى بان الرجل كان مثلها محروماً من حقوقه الا منذ آن قصير . ان حق التصويت لم يعط للرجال عامة في اليابان الا في هذه السنة . وكثير من الدول لا تبرح تضن به على الرجال ، وليس فوز الانسان بحقه السياسي الا حادثاً جديداً في عالم التاريخ الذي لو استقرأناه لوجدنا فيه الحق للقوة لان الحاكم العاتي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان يعول في تنفيذ احكامه على العنف والقهر . لوجدنا فيه ان بعض الامراء الاشداء النافذين لم ينالوا حقهم ولم يعترف لهم الملك بامتيازاتهم الا بعد جدل طال اجيالاً كثيرة في القرون الوسطى ، ثم قامت بعدهم الطبقة الارستوقراطية مطالبة الملك ان يعترف لها بحقوقها فما نجحت الا بعد كر العصور ثم نهضت على آثارهم الطبقة الوسطى فاقتضى تأييد حقها ايضاً قروناً ثم ثار الرجال واخيراً لحقت اثرهم النساء في الزمن الاخير وسبب عاقتهن هذه هو انقطاعهن الى المهام المنزلية وتربية الاطفال وعدم تدربهن على السياسة ومزاحمة الرجال لهن عليها .

اما عبودية المرأة الحقة فهي ماتبرح شائعة في الغرب لسوء الحظ بين الغنيات اللائي فسدت آدابهن . فهن كالنباتات الطفيلية تعيش بامتصاص غذاء غيرها . وهن على الغالب يعرضن عن ولادة الاطفال . و يعشن عبدات لشهواتهن المادية وقد أدى بهن ذلك الى صيرورتهن عبدات للرجال الالي يمتعوهن بتلك الشهوات . كثير من المشرقيات لسوء الحظ يزعمن ان في مثل هذه الحياة حرية اوسع من الحرية المشتملة عليها حياة تقضي بالعمل والتمسك بالواجب . الا انها حياة قذرة مجللة بالخزي والعار حيثما وجدت شرقاً كان او غرباً .

وشر انواع هذه العبودية المنتشرة في العالمين الجديد والقديم هي عبودية المرأة العامة — العاهرة — فان امرها في الشرق معروف ، لا يستره ذلك الرياء الذي تتنكر به العاهرة في الغرب . الا ليس يحق لامة ان تعتبر نفسها متمدنة ما دامت تتساهل بوجود هؤلاء النساء وتغض الطرف عنهن . فلتضع نساء العالمين ايدي بعضهن بايدي بعض . وليعملن على إزالة هذا العار وتحرير بنات جنسهن من هذا الخزي المعيب .

يحترم الصيني اسلافه احتراماً فائقاً يبلغ حد العبادة و يسمي سلفه خطأ بالمعبود ، و يضع لوحة الأم بجانب لوحة الأب بعد موتها ، وللام في حياتها السلطة الواسعة والنفوذ الشديد ، و يظل اولادها كباراً وصغاراً مذعنين لحكمها حتى وفاتها . ليس مشهد والدة عجوز ضئيلة الجسم قصيرة القامة منحنية الظهر تضرب ابنها بالعصا وهو في سن الرجولة على مشهد من القوم وهو عاجز عن الدفاع لا يأتي بحركة بالمشهد الذي نراه كثيراً . لان العادات الصينية تقضي على الابن ان يتحمل من أمه كل شيء ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد كان في الصين عادة قديمة تقول بان يعرض الآباء اطفالهن الاناث للعناصر الطبيعية ليقضين نحبهن . هذه العادة هي سبب امتهان قدر المرأة الواحد ومصدر معاملتها السيئة كما ان الضغط الاقتصادي الذي يساعد على نشر هذا الاعتقاد في كل بلاد يحل فيها هو السبب الآخر . واذا شئنا ان نقدر درجة هذا الضغط الاقتصادي فقدرن فقر بلاد مضنكة كثيرة عدد السكان كالصين لا تعاطى فيها البنات عملاً ما ولا يقدرن على اضافة شيء من الربح الى رزق الأسرة تجدن ان ليس ثمة من الملاءمة ان تخذ الضغط الاقتصادي الذي أدى الى امتهان قدر المرأة دليلاً على عبوديتها . ان في تاريخ الصين ذكر نساء تولين ادارة الاحكام وكانت آخرهن الامبراطورة دواجر التي اشتهرت بشدة النباهة والمقدرة العظيمة وعظم تعلق رعيتها بها .

يظهر ان رتبة نساء اليابان ادنى من رتبة ازواجهن . تمتاز اليابانية باللين واللطف والرشاقة . وتنحصر الغاية من تهذيبها في ان تصير محبة جذابة قادرة على خدمة زوجها . شهد كثير من السياح ان اليابانية افضل نساء العالم . وانها خيرة ما ابدعته الحضارة اليابانية من الفرر . ولكن عشرتها عملة لا تلبث ان تسأمها سريعاً ، لانها على ما يظهر لا تفكر بشيء البتة ، وتقضي حياتها كالاطفال بين هذيان سخيف وثرثرة تافهة سواء أكانت خارج بيتها او في خلال قيامها على تدبير منزلها . ولكنها مع هذا شديدة التمسك بالواجب . وربما كانت المرأة في الطائفة اليابانية السامورية المعروفة ببسالتها اشد احتفاظاً اليوم بالسنن القديمة من رجال قبيلتها . تتناقل الالسنة في اليابان روايات كثيرة . تخلد فيها ذكر نساء قمن بتضحية اجسادهن دفاعاً عن اولادهن وبلادهن . ولهذه القصص تأثير عظيم في العقول ومعظمها لا يخلو من المبالغات وهي ملء دواوين الشعراء . ولو تجردت هذه القصص من ترديد القول بان كل امرأة من اولئك المصلحات الشهيدات فادت بنفسها في سبيل الحصول على غرض نبيل لاسكنها ان تؤثر في انفسنا وتقوي على الهامنا والفوز باعجابنا . ولكن اثرها السيء يعمل في نفوس بنات البلاد ولا سيما بنات القرى . فانهن لا يأتين من بيع اجسادهن بمغانم الفقر . فيعشن عيشة ملطخة بالعار زعماً منهن انهن يقمن بواجب نبيل وهو سد عوز أسرهن .

اما سبب هضة مكانة المرأة اليابانية حتى اليوم فترجع في الاصل الى شدة تمسك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الياباني بالقديم . ولزوم المفاداة والمحافظة على الواجب هما ككل الافكار القديمة التي تحرص عليها النساء اكثر من الرجال . وقد قامت اليابانيات عموماً اليوم بنهضة يلحفن فيها في طلب حقوقهن وامتيازاتهن وهي رمز الى تقهقرهن ودليل على فساد آدابهن اكثر منها دليلاً على ارتقائهن لانهن لا يميزن بين الحرية المنظمة وغير المنظمة . ان الحرية أعظم النعم قدراً ، ولكن ينبغي ان تكون منظمة لا يطلق فيها العنان للأهواء ، وفي الامكان ان ترتقي اليابان وغيرها من الشعوب لا بتجريد نسائها من حاسة التمسك بالواجب بل باعادة الرجال اليها .

كنت هناك على اتصال شديد باشرف أسرة في اليابان وهي الثانية بعد البيت المالك وقد تزوجت فتاة هذه الأسرة منذ عام بولي عهد اليابان فأصبحت الآن الامبراطورة العتيدة ، وهذه الفتاة تدعى الاميرة كوني وهي فتاة ضئيلة الجسم خاسفة الوجه تذكر كن رؤيتها بزهرة تعيش في منزل مغلق حار تعيش في معزل عن الناس عيشة السجينات كأن أهلها يزعمن ان ليس بين الطبقة الارستوقراطية من يستحق شرف الحظوة بمعاشرتها . ويخيل لمن يراها انها تؤثر الموت حرقاً على تغيير ملامح وجهها . وكثيراً ماعنّ لي عند رؤيتها ان النساء العصريات المهذبات تهذيباً عالياً قد فقدن شيئاً لا يثمن مع شدة افتتانهن بالحرية وما نلنه من الرفعة .

مكانة المرأة في كوريا أدنى منها في عامة أقطار العالم التي زرتها . وعلى حين لا يشتغل الرجال — حتى الفلاحين منهم — بعمل ما فهم يسيئون معاملة زوجاتهم ، ويعاملونهن معاملتهم للوحوش الضارية ، ولا تلقب البنت عندهم منذ ولادتها حتى موتها باسم غير الرقم فيقولون المرأة (رقم واحد) والمرأة (رقم اثنان) الخ على ان مدنية كوريا لا تُعد من المدنيات الراقيات بل هي من أحط أشكال المدنيات .

اما مكانة المرأة في الهند فهي وضيعة جداً لا ترجى لها رفعة لاسباب كثيرة . وسبب ذلك تتابع الحروب فيها وما نجم منها من البرحاء . والافراط في الحرب احد الاسباب الباعثة ايضاً الى استعباد المرأة لأن القضاء يتولى فيها حمايتهن و يزيد اهتمامه بمراقبتهن الى حد ينتهي غالباً الى استعبادهن تقريباً . وهناك سبب آخر وهو اعتبار النساء أدوات لذة للرجال ، وهو اكثر انتشاراً في الحرب منه في السلم لان العواطف تكون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في زمن الثورة — في اضطرام والملذات — في نقص . على ان بلاد الهند فسيحة الجنبات والفوارق بين القبائل واسعة ايضاً وبين الهنديات عدد استنارت أذهانهن وفزن بحريتهن كأرقى نساء العالم . والذي حدا بي في الحقيقة الى القول بان البيت لا يصير بيتاً بمعناه الحقيقي ما لم يتألف من مزيج عناصر شرقية وغربية معاً هو زيارتي بيت امرأة هندية راقية .

الطبيبات اول من تهذب من الشرقيات وتعلن تعليماً نظامياً . اذ قد استحالت على الارساليات الدينية ان تتوصل اليهن عن غير هذا الطريق ، ولا تزال النساء باشد الحاجة الى تعلم قواعد حفظ الصحة . والا بقيت الولادة خطراً عليهن وألم المخاض وتعرضهن فيه للموت مستديماً . يصعب علينا ان نجد احصاء دقيقاً لعدد وفيات المواليد ويقال ان نسبة عدد الاطفال الذين يموتون في الشرق — في حالتهم وهم أجنة الى حد السنتين — الى نسبة عدد الذين يظلون منهم أحياء هو نسبة تسعة الى عشرة . يا لهول هذا العدد و يا لهول مشهد ملايين من النساء يعانين برح آلام الولادة والنزع لا يزيد اعتبارهن على آلات لانتاج الاولاد ولا يؤبه لموتهن ولا لتهذيبهن . يعشن سقيمات العقول عقيمات الافكار فهن من جهة عالة على انفسهن ومن جهة عالة على المجتمع وان اول مايجب ان يباشرنه من الاصلاح هو تعلم قواعد حفظ الصحة على اصول سلامة الولادة وكيفية انجاب النسل وطرق انقاص المواليد وهذا علم حديث الانتشار حتى في بلاد الغرب . يرى بعض الاطباء فيه خطراً اعتقاداً منهم انه ينافي الدين والوطنية ويعتبرونه جرماً فظيعاً . يخجلني ان اعترف بوجود هؤلاء الجهلاء بيننا على حين ان الاطباء الراقين يقرون بان صحة المرأة التي تلد في كل سنة ولداً تسوء اكثر فأكثر واذا ساءت صحتها ووهنت قواها كانت صحة الاولاد الذين تلدهم اسوأ واكثر تعرضاً للموت ومن الحكمة ان يفضل الولدان ولادة ثلاثة اواربعة يقدران على إعالتهم وتهذيبهم — على ولادة اثني عشر يعجزان عن سد حاجاتهم .

يوم جاءت مرغريت سانغر العالمة الاميركية الشهيرة اليابان كنت فيها وقد قابلتها وكانت حضرت اليها لتذيع هذه الفكرة فحالت الحكومة دونها وهي زعيمة القائلين بهذه الفكرة ومن الذين سجنوا بسببها وصرفوا سنتين او ثلاثاً في السجن ولكن تمكنت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في الصين ان تذيع فكرتها فأثرت تأثيراً وبليغاً وغايتها من ذلك ظاهرة وهي انقاص عدد المواليد الفقراء الجهلاء ليقل عدد الوفيات بينهم وحث الاغنياء الذين في استطاعتهم إعالة الاولاد وتهذيبهم على الاكثار من المواليد سداً للنقص الناتج من منع الفقراء من الاكثار من المواليد و بهذا يستوي الامر دون ان يصيب ميزانية الاحصاء عجز (١) .

سار تهذيب الفتيات في الصين في بدء الامر سيراً بطيئاً لان الاب لم يكن يرى من فائدة في تعليم ابنته مادامت تتزوج باكراً وتنتقل للسكنى مع أسرة زوجها . ولكن لما تأخر موعد تزويجها ، صارت البنات يتهذبن تهذيب الرجال ، وبينهن من يذهبن كالشبان لطلب العلم في الغرب ومثلهن اليابانيات فان تهذيبهن في تقدم متواصل . زرت الجامعة التي تعنى بتخريج الكهنة البوذيين فوجدت بين الطلبة عدداً من النساء ومعظم مايتعلمنه فيها هو العلوم الدينية والعملية . وسئلت حال وصولي الى اليابان ان أزور أرقى مدرسة في البلاد واشد ما دهشت ساعة دخلت ردهة الصنف الاول ووجدت فيها خمسين شابة يابسن (الكيمونو) الياباني البهيج . متمكنات في صقل أحذية الرجال السوداء ، كأن الاحذية الاوربية مشكلة يحاولن حلها او مصيبة يحاولن درءها ، فرأين من الواجب ان يحسن احذية رجالهن الى المدرسة ليأخذن درساً تمهيدياً في اصلاحها . بدلكن ذلك على شدة تمسك المرأة اليابانية بواجباتها ومكانة خدمة زوجها في نظرها . وليس بين اعمال البشر ما يتفق فيه هذا القدر من الوقت والعناية مثل اصلاح احذية الرجال عندهن حتى ان عنايتهن باتقان هندامهن قليلة جداً بالنسبة اليه .

التقليد شأن واي شأن في حياة اليابانيين بل هو أعظم تأثيراً فيهم من العوامل الاقتصادية ولو قضوا به على الطرب والجمال . هي حقيقة لا مراء فيها فان محبة التقليد

(١) هذا رأي الخطيبة وكثيرين من اهل الغرب وهو غير مقبول في الشرق ولا سيما في بلادنا الا اذا كانت الطرق المستعملة لانقاص المواليد غير مخالفة للقواعد الدينية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النقص في الشرق عن الغرب . يقبل الناس على أزياء وضعها غيرهم لهم اكثر من إقبالهم على تقليد نظام اجتماعي ارقى من نظامهم ، تختلف حالات طبقة من الناس عن طبقة غيرها فتلبس تلك أزياء غير التي تلبسها هذه ، ففي الصين مثلاً يطيل الرجال أظفار ايديهم ويصونونها من الكسر بلبس قوالب معدنية من الذهب اوغيره ، وتضغط نساؤهم على أقدامهن بالاحذية الضيقة ليمنعنها من النمو ولكيلا يخطون خطوات واسعة برهاناً على كونهم رجالاً ونساء ارباب نفوذ ومن طبقة ترفع عن العمل وليست في حاجة اليه فتحذو بقية الطبقات حذوهم ولو كانت في حالة العوز الشديد الى العمل الشاق : كان لدي خادمة صينية من هذا النوع تضيق على قدميها بالحذاء الصغير فتسيء العمل وتسقم جسمها بتقليدها الغنيات دون ان ترعوي اوتصغي الى نصيحة . هذا هو سبب انتشار الازياء المضحكة التي صارت على مختلف أشكالها مطمح أنظار الناس في كل بلاد ، وترون المرأة اليابانية الغنية تلبس اكماماً عريضة مجرجرة تحول دون قيامها بعملها فتقلدها الفقيرات ولايجدن انفسهن في غنية عنها او يشعرن بانهن بدونها ذليلات مستحقرات . وأرجح ان هذا الزي هو الذي كانت تلبسه الراقصات قديماً في البلاط الصيني .

كان الاقبال على الازياء الغربية في الشرق الاقصى في بدء عهد انتشار النفوذ الغربي شديداً . وعلى الاخص في اليابان ولكن النساء عدن تدريجاً الى (الكيمونو) الذي هو اكثر ملاءمة لهن ، وفي رأيي ان الزي الغربي الذي تأصلت محبته في الشرق هو شر ماوصل اليكن من صادرات بلادنا اعني بها زي الرجال الذين يخرجون به الى الشوارع فهو على ماهو عليه من القبح لضيق السراويلات (البنطلونات) وصلابة القبة الضاغطة على العنق الخ لايهب لابسه راحة ولاحرية بمقدار ماتهبه ازياء كثيرة شرقية ، انه صنع لفئة من الرجال يتفق مع مركزها وعملها فجرى في اثرهم سائر الناس حتى أصبح زياً عاماً .

من المأمول ان تقف نساء الشرق دون رواج الازياء الغربية ودون تبدل الحياة البيتية . وانهن اذا رمن تبديلها فليسلكن ناحية تصل بهن الى تقدم حقيقي . تشير الدلائل الحاضرة الى انهن لايسلكن هذه الناحية مادمن يتمسكن بنير اتباع الازياء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الثقيل في زمن باشرت النساء الراقيات في الغرب ان يطرحنه عنهن . ان عادة تغيير الازياء سبع مرات في السنة لمن أسخف العادات وأدعى المشاهد الى السخرية والازدراء والاسراف في الجهد والمال . وفي معظم الاحيان تكون هذه الازياء مجردة المرأة من جمالها الحقيقي ومضعفة قواها لا تأتيها بنفع من وجه . كانت هذه الازياء تمثل لك مظاهر نساء الطبقات العالية قديماً فصارت الآن ثمرة نجاح مساعي التجار القائدين ملايين من النساء في العصر الحاضر بانوفهن استدراراً للربح وجداً في منفعتهم الخاصة .

ان محبة اللباس متأصلة في غريزة الانسان . وهي مفيدة صحية للرجال والنساء اذا روعيت فيها قاعدة المنطق والنفع وليس في إتقان الهندام شيء من السخافة والتبذير اذا كان مجرد القصد من إتقانه الاخلاص . وماذا يحاول البشر عمله سوى ان يؤيدوا حقائق سامية ثلاثة هي الصلاح والحق والجمال ؟ فاتقان الهندام يمثل لنا الجمال و يجسم لنا مظهره و يسهل وصولنا اليه . فاذن هو أسهل الوسائل الطبيعية التي نتوخاها لبلوغ الجمال . ومتى بلغناه أحرزنا الحقيقتين الباقيتين وهما الصلاح والحق . ولو ان كل امرأة لها من احترامها لنفسها قدر كاف للنزول عند حكمها الخاص وذوقها الذاتي لسمت مكانة اللباس تدريجاً فبلغت مصاف الفنون الشريفة . ولو ان كل امرأة قدرت على قشع الضباب الذي سدلته محبة اللباس على عينيها ، لرأت ان اتباع الزي اللائق بها يوفر لها كثيراً من الجهد الضائع والمال المفقود ، و يرد لها مكانتها العالية ، و يرفعها الى رتبة اهل الطبقات العالية . على ان تكون قاعدتها في ذلك هو اختيار النسيج المتين الصالح الذي هو اشهى في حد نفسه من سائر الانسجة ، وأطول بقاء من ذلك النسيج الذي يعيش عاماً واحداً . ثم عليها ان تراعي في تفصيل زيه الاحتشام وما يهبها رشاقة الحركة والوقار . وذلك يفضل على اتباعها الازياء الغاوية الوقتية .

يجب ان يتجرد الزي الكامل الذي ننشده من كل ما يضيق الجسم من مشدات وأربطة وان يكون اللباس رحباً لا يمنع دخول الهواء الى الجسم ولا يضغط على العضلات ولا يعوق دوران الدم . وان تكون كل الملابس وعلى الاخص ما يلامس الجسم منها مفصلة على زي يسهل غسله مراراً . واشد الاضرار الناجمة من الازياء الغريبة هي تلك التي اذا اتسخ داخلها استحال علينا غسلها وتجديد رونقها . ولباس المرأة الهندية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من هذا القبيل هو احسن الملابس جميعاً من وجوه عديدة . فهي مشتملة على الجمال ، مسهلة رشاقة الحركة ، و بسيطة ، محتشمة ، لاتجد صعوبة في خياطتها وغسلها واخفائها ، ولا تحول دون نمو الجسم ، ولا تقف دون النشاط ، ولله ما احلى منظر الخادمات حين يظهرن بها . بل لله انتصاب قاماتهن ورشاقة حركاتهن !

انثن سكان مدينة تاريخية شهيرة ملأ ذكر مصنوعاتها ومهارة صناعها الخافقين ! انكن بتضييعكن هذه المصنوعات واعراضكن عنها قد اضعتموها على العالم ، وجررتن على عالم الفنون خسارة كبرى . ففي ايقاظكن الذوق الفني الذي لا بد ان يكون سارياً في دمائكن . و بانعاشكن هذه الفنون الميتة ، التي زادت قدراً لندرتها و ببذلكن المساعي الى ايجاد زي (موضة) جميلة تسدون الى انفسكن و بلادكن والى عشاق الجمال المنتشرين في كل انحاء الارض يداً بيضاء . هذا المسعى لا يكلفكن من المال بقدر مايكلفكن من الجهد والاخلاص . واني آخذ مساعدتكن على عاتقي بقدر الطاقة . فاذا رافقتكن هذه الفكرة فأرجو منكن زيارة المدرسة الاميركية في دمشق حيث تجدن في الدكتور اسنبرغ التي هي من اكبر عالمات اميركا شأناً ، والتي هاجرت الى هذه البلاد حباً بخدمة التهذيب العام ليس الا ، شخصاً لا يني في البحث عن تسهيل مشقة هذا العمل وحل مافيه من الاشكال .

أعظم ما راقني في الشرق البيت الياباني القديم الطراز ، فهو بفسحة بهوه وهندسة بنائه وانواع امتعته من اجمل البيوت . وقد اصبح هذا البيت نادر الوجود . وسيخلني شكله عما قريب لان عادة الجلوس على الارض قد أُلغيت . ولان اليابانيين يزدادون ميلاً الى أسلوب العيشة الغربية المتعبة . ان البيت الياباني القديم يمثل الحياة ببسط أشكالها واجملها واسماها . اذا شاء الياباني الانتقال من بيت الى آخر اتسعت عربة واحدة تجر باليد لنقل امتعته كلها . لااعني بقولي ان الياباني يعيش عيشة الهمجي بل ان البيت نفسه مبني على طراز يقتصد كثيراً من ضروب الامتعة وادوات الزينة . حتى ان الأسرة الغنية التي تملك من التحف ما يملأ مستودعها البيتي تؤثر ان يظل بيتها بسيطاً فارغاً .

لهذا البيت شكل مطاط فيه جدران من الورق تنسحب اذا ارادوا توسيع المكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتغطي ارض كل غرفة يقال له (Tatami) اي حصيرة من القش مبطنة ، تغرق فيها القدم و يرتاح الجالس عليها ، ولايسمح لاحد ان يطأ ارضها بحذائه . بالها من ارض دونها قصعة الطعام نظافة . ومن عادتهم ان يقدموا للضيف وسادة حريرية يجلس عليها و يأتون اليه بالطعام على صينية يضعونها أمامه على مائدة علوها نصف شبر وفي كل غرفة من الغرف خزانة في الحائط (Todamad) تحفظ فيها الفرش الحريرية التي يرقدون عليها ثم يلفونها و يخبؤنها في الخزانة . ومثلها لحفظ (الكيمونو) التي تلبسها الاسرة وتطوى طياً مرتباً . وأخرى لحفظ القصاع وسائر الامتعة اللازمة . وفي الغرفة قبة من اصل البناء هي اثر من آثار طقوس العبادة القديمة . ومكان خاص يحفظ اللوحات التي يكتب عليها اسماء الاسلاف . وهذا اثر من آثار فلسفة فنونهم الجميلة وهنا طومار معلق الى الجدار مصنوع من الدهان يوضع ازاءه اناء بديع طافح أزهاراً في أجمل ترتيب . وقد يكون للأسرة الواحدة كثير من هذه الطوامير والآنية ولكنهم لايضعون في الغرفة الواحدة اكثر من طومار واناء وما زاد على ذلك فهو دلالة على سقم الذوق . و يبدلون هذه الطوامير والآنية من آونة الى أخرى بغيرها فيصيب كل منها دور وليس لديهم غير هذه الاشياء من أدوات الزينة سوى صناعة البيت نفسها المشتملة على أخشاب معرقة او مدهونة أضف الى ذلك ماتطل عليه نوافذهم في مشاهد حدائق غناء لم أر أجمل منها . والخلاصة ان الناظر الى هذا البيت يقر عيناً ويطيب نفساً على عكس ما يشعر به الناظر الى معظم البيوت في الغرب .

قضيت في بيت ياباني قايم الطراز عامين ووجدت فيه هناءة ورغداً . ولكم كنت أتمنى لو سكنت في مثله بقية حياتي . ولكن ليس من احد يتمكن ان يعيش عيشة اليابانيين الا في اليابان . اذ لا يفهم اسرار صناعة بيوتهم الا بناؤوهم . ثم يصعب عليّ ان اكلف اصدقائي خلع أحذيتهم قبل الدخول الى المنزل وان أرغمهم على اتباع اهوائي .

قلت ان شكل هذا البيت اصبح قريب الزوال . لان اليابانيين درجوا على اقتباس صناعة البيوت الغربية ولم يجدوا مناصاً منها بعد ان لبسوا السراويل الغربية لتعذر الجلوس براحة على الارض . انتشرت بينهم الفكرة القائلة بان الرقاد على الارض ليس صحياً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كالرقاد على السرير . وصاروا يتعبون من الجلوس على الارض الذي تتصلب به الساقان لتعودهم الجلوس على الكراسي . انهم بتقليدهم العادات الغربية قد فقدوا شيئاً ثميناً جداً . فان سعة فضاء البهو الياباني تكسب الناظر رحابة الصدر على عكس مايورثه الفضاء الضيق والامتعة المتراكمة من الضيق والكرب .

يسوقني ذكر هذا البيت الى البحث في موضوع هو كيف يجب ان يكون البيت . من الواجب ان يتبع في هذه المسألة سائر ما تستلزمه الملابس وغيرها من المسائل الحيوية من الانطباق على المنطق اومراعاة شروط الصحة والراحة وتقليل النفقات والانفعالات الروحية . لقد أصبح تعريض هذه المسائل للفحص والنقد امراً لازماً في زمن كهذا الزمن الذي نرى فيه كل شيء يتغير تغيراً كلياً . يقول بعضهم ان الحياة المركبة تختلف عن الحياة البسيطة اختلاف الهمجية عن الحضارة وهم مصيبون في هذا القول الى حد ، وهو ان الحضارة قد تدرجت من البساطة الى التركيب ولكن هناك نقطة هي من الخطورة بمكان لا تقدر الحضارة ان تصل اليها . فقلة عدد الخدام في اميركا ووفرة الأعمال التي تطلب الانتباه الشديد قد منعنا الناس من بذل الجهد وهو ضروري في جعل الحياة بسيطة .

يشترط في البيت ان يكون جامعاً لكل حاجات الانسان المتفقة مع طبيعته المثلثة الصحية والعقلية (وهي مزيج من العقل والعاطفة) والادبية بحيث تكون هذه الشروط الثلاثة متوازية لا يزيد احدها عن الآخر ولا ينقص . فاذا كان هذا التوازن مجتمعاً في البيت فلا يبقى شأن للحياة أكانت مركبة ام بسيطة . ولو شئنا ان نطلق حكماً عاماً في العيشتين « المركبة والبسيطة » يسهل وجود التوازن لوجدناه في الحياة البسيطة أقرب تناولاً وأقل صعوبة منه في الحياة المركبة . فالمرأة التي تستغرق وقتها ادارتها عدداً كبيراً من الخدم واهتمامها باقامة المآدب وعنايتها بالرياش الفاخر قد لا تجد فراغاً لتفقه في المطالعة او في مشاركة تهذيب اولادها . واذا فرضنا انها قادرة على القيام بكل هذه الاعباء الثقيلة معاً فانها لا تعيش عيشة بسيطة ولا تذوق طعمها .

اما من جهتي انا فاني استصعب مطالعة كل ما أريد مطالعته وكتابة كل ما أريد كتابته وزيارة كل من أريد زيارته . والتعرف الى كل الاشخاص الذين اسمع عنهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واتوق الى معرفتهم . مع هذا اجد في نفسي ميلاً يشتد عاماً فعاماً الى ان أطبخ ملء وعاء كبير من حساء العدس في غرة كل شهر ثم أذهب كديوجينوس لارقد في ذلك الوعاء اه .